التأريخ ... تأملات وأفكار

الأستاذ الدكتور صالح محمد العابد
قسم التأريخ في كلية الآداب – جامعة بغداد

في حديث عابر مع الزميل متخصص في الاقتصاد، تساءل: هل يمكن أن نعد التاريخ علماً ؟ وكان جوابي الفوري : نعم ، إنه علم . ولكني عدت أقلب الموضوع وأتأمله ، وأدى بي هاجس ملح إلى نتائج يمكن أن ترسم الخطوط العريضة لمنهج التاريخ وفلسفته .

يشارك التاريخ سائر العلوم في جمع الوقائع وتقسيمها وتحليلها واستخلاص الحقائق منها . ولكنه لا يماثل العلوم الطبيعية في قوانينها الثابتة، لأن نتائجه تتغير بتغير الحقائق التي تبنى عليها ، تبعاً لتفاوت الإنسان وبيئته، طبيعة وغرضاً. فالتطور التاريخي ينطوي ضمناً على ظهور شيء جديد، فهو إذن مختلف عن التكرار أو المتسقات الدائبة الاستمرار التي تنطوي عليها القواعد بصورتها المصوغة في العلوم الأخرى .

ولهذا ليس صحيحاً القول أن التاريخ يعيد نفسه على نحو ما تتكرر الظواهر الطبيعية ، كالمد والجزر، وتساقط الأمطار، وهبوب الرياح والعواصف أو غليان الماء ... ولكن مع التطور العلمي الذي شهده القرن التاسع عشر، تصور الناس إمكان ظهور (علم للتاريخ) يستخدم مناهج تماثل ما تستخدمه العلوم المقننة بأسس لا تتبدل ! .

إن (علم التاريخ) طبقاً لرأي المؤرخ بيوري " لا يعني استخدام المناهج والمفاهيم المعهودة في العلوم الطبيعية. وإنما الطريقة التي سيصبح بها التاريخ علمياً هو التحليل المنظم النسقي والدقيق للمصادر ، مع وجود منظور كافٍ يدخل في اعتباره المستقبل فضلاً عن الماضي، هذا إلى تأكيد وحدة التاريخ واستمراره " .

يهدف التاريخ إلى استقصاء الأحوال التي عاشت الأمة في ظلالها وخبرتها وعانتها . والتحريات التي يقوم بها المؤرخ تجعله يسعى إلى فهم حقيقة ما حدث ، وكيف

حدث ، ولماذا ؟ . ولن يتأتى ذلك ، دون أن يقيم المؤرخ توازناً بين الدور الذي أداه الإنسان ، والميدان الذي جرت عليه الوقائع. إن غاية التاريخ ليست سرد أحداث الماضي واستعراض أعمال الملوك ومآثر القادة أو الأبطال أو سرد حوادث الحروب والكوارث ، كما يستعرض الإنسان أحداث مسرحية تجري أمامه ، فهذا هو الأسلوب الوصفي ، وإنما غاية التاريخ الوقوف على الأسباب التي حركت تلك الأحداث وصاغتها وبلورت نتائجها ، بتأمل وعي ولا وعي متلازمين منقطعين إلى استيعابها ومحاولة تفسيرها . وهنا تكمن صعوبة عمل المؤرخ . تقول (المدرسة التجريبية) : " احصل على حقائقك بصورة صحيحة ، ومن ثم أقحم نفسك في خطر رمال التفسير والتأويل المتحركة " . ولكن يظل سبر أغوار الأحداث وتأويلها في صلب كل حقيقة من حقائق التاريخ .

ما الحقيقة التاريخية ؟ سؤال عسير من غير شك، يتطلب الاقتراب منها أقصى درجات الحرص والتجرد والمخيلة العلمية . فالتاريخ ، يقول كوتشاك Gottschalk : " أبعاد ثلاثة ، هي من العلوم والفلسفة والفنون ، في الصميم " .

والتاريخ ، منهجاً ، يتبع قواعد صارمة لتحديد الواقعة التي يمكن التحقق منها . وهو ، من حيث العرض ، يتطلب خيالاً وذوقاً وأدباً ومقاييس نقدية . أما أنه تفسير للحياة ، فتطلع إلى بصيرة الفيلسوف وأحكامه. فعلى سبيل المثال، نجد المبالغة والتهويل في أعمال معينة ، وإعطاءها مكاناً أعلى مما تقتضيه الحقيقة التاريخية ، يمكن أن تمسح به الفضيلة عند أديب أو فنان أو صحفي، ولكن هذا أمر لا يجوز للمؤرخ ، لأنهما تقف على طرفي نقيض مع البحث العلمي. إن الكتابة التاريخية التي تقوم على الأساطير لا يمكن أن يكتب لها الخلود . ويجب أن تكون المُثل ، لا الأشخاص ، هي التي ينبغي أن تكون أساساً لأية عقيدة .

إن فهم القواعد الفلسفية والأخلاقية مما يحتاج إليه المؤرخ، لا ليضع تاريخاً يتجاوز بتبويب الحقائق ، بل لكي يحكم بفطنة على الكتابات التاريخية التي دونها غيره .

ولكن هذه المبادئ الفلسفية يجب أن لا تحفظ آلياً، بل تستمد من تجارب المؤرخ وتنسجم وأياها . فالمؤرخ ، إلى حد ما ، فيلسوف يجب أن يرتفع بملكاته إلى مستوى يؤهله للوصول إلى الحقيقة من بين المصادر المتوفرة لديه .

وإن جلاء المفاهيم الأساسية ضروري لمن يروم فهم مجتمع من المجتمعات، ويظل عرضه للدراسة كلما استجد مصدر جديد ووثائق جديدة .

ومن الأمور المهمة الأسلوب اللغوي الذي تدون به الواقعة، فلا شيء يكسب التدوين لذة مثل حيوية الأسلوب وتدفقه. ذلك أن بلادة الأسلوب قد تؤدي إلى الوقوع في الخطأ وتورث الملل وتنفر المتلق . وتقديم الوقائع في إطار خال من الجزالة، هو إلى حد ما ، تشويه لتلك الوقائع . إن المؤرخ الذي يكتب أسلوباً لا يستسيغه أحد، هو مؤرخ فاشل ، لأنه لا يستطيع أن يعيد إلى الحياة الجو الذي وقعت فيه تلك الحوادث .

فإذا جاء وصف مؤرخ لمعركة كأنه تقليب في دليل الهاتف، أو جاء تصويره لمأثرة شخص كأنها سجل لكاتب واردات ، فأنه يكون قد أخفق في إعادة تصوير الأحداث وأزرى بها وشوه روعة جوهرها .

ومن البديهي أن لا ننتظر من المؤرخ علمي أن يكتب بأسلوب شيللر وجودته وطه حسين .. ولكن المطلوب أن يكتب ببساطة متجنبا الإيهام بالمعرفة والإيحاء بالجهبذة ، وأن يمتلك أسلوباً يسمح للكتابة أن تكون أداة طيعة تقوده إلى جوهر الحقائق التي يتحدث عنها ، لا أن تكون عقبة أمام الوصول إليها . إن المؤرخ المدقق يمتلك أسلوباً آخاذاً يجعل موضوعه محبباً إلى القارئ المثقف : تناسق في الأداء اللغوي بعبارات جامعة مانعة ، معززة عند الضرورة بالملحوظات التي تجعل المؤلف أن يختار الهامش الجيد لا أن يغرق صفحاته بعشرات المصادر والمراجع والتعليقات التي لا غنى فيها ولا نفع ، موحياً أنه علامة دهره ، في حين أنه غير قادر على أن يكون متون بديل هوامشه . ولا يمكن أن يخدعنا المؤرخ الطارئ في إيراد أسماء أجنبية وعشرات المصادر بلغات عالمية متنوعة ، وهو لا يعرف لغة ثانية ، وبه حاجة إلى أتقان لغته الأم .

أن مهمة المؤرخ تتميز بالصعوبة الشديدة ، فهو يستخرج حقائق تلقي ضوءاً على المسألة التي يعالجها ، دليله دقائق الأسفار والوثائق الرسمية وغير الرسمية على اختلاف نزعاتها وتباين مصادرها . وعليه أن يمنح كل جزء من الدليل، في المعلومات

التي جمعها ، أهمية متساوية ، مراعياً أمانته العلمية وضميره، ويسلك طريقة البحث التاريخي غير المتحيز المقترن بالموضوعية .

وفي حالة عدم توفر الدليل، أو أنه غير كاف للتوصل إلى نتيجة محددة، يتحتم أن لا يعطي إجابات قاطعة، ويؤجل إصدار قراره. والأهم من كل ذلك، أن يبتعد عن القرارات والاستنتاجات الاعتباطية، وأن يثبت فقط ما يتابع منطقياً من الدليل الذي يكون قد عرفه .

ولهذا نجد من البديهي أن يرفض المؤرخ الأحكام الجاهزة التي تعيد حريته وتمنعه من التحليل وتجعله يقولب الوقائع التاريخية ليصبها في هيكل ثابت تقدمه المدارس المختلفة ، ويستبعد كل ما لا ينسجم وهذا الهيكل ويلفق ويختلق ما يؤيده ، كما تدعو (المذاهب الوضعية) .

فالهدف دراسة ما حدث فعلاً، لا ما كان يجب أن يحدث، ببعد نظر يخترق الزمن لفهم تصوري لأذهان الناس والأفكار التي كمنت خلف أفعالهم .

إن المنهج التاريخي Historical Method يعني باختصار عملية الفحص والتحليل الدقيقين لوثائق الماضي، أما كتابة أو تدوين التاريخ Historiography فهو إعادة البناء للماضي برسم صورته قدر المستطاع من وقائق الحقائق المستخلصة من ذلك المنهج . وكلا التحليل والتركيب متلازمان. فتحليل نقدي متفحص للوثائق أمر مهم ، ذلك أن كل وثيقة، بعيداً عن مقدار الدقة التي حرص كاتبها على أن يكون موضوعياً ، تعكس فلسفته وما أراد أن يؤكده . يعلق المؤرخ ادوارد كار على ذلك : " ما من وثيقة بوسعها أن تخبرنا أكثر مما لها محررها ، الشيء الذي اعتقد (هو) بأنه حدث أو الذي اعتقد بوجوب حدوثه أو أنه سيحدث، أو لربما بما أراده من الآخرين أن يفكروا بما فكر به ... إن الوثائق شيء أساسي للمؤرخ ، ولكن من الخطأ عدها معبوداً ، فهي لا تشكل التاريخ بذاتها " .

وتؤكد مرة أخرى ، أن التاريخ ليس محض سرد للوقائع ، ولكنه علم متميز له منهجه الخاص . فعملية إعادة التكوين هي عملية اختبار للوقائع وتأويلها، مما يجعلها حقائق تاريخية . وما أبعد هذا عما يقوم به مبتدئ في التاريخ، يظهر أن البحث التاريخي

ما هو إلا اختيار مواد تاريخية من كتب عدة ومقالات يعيد ترتيبها من جديد ليتضمنها كتاب آخر أو مقالة أخرى .

وهكذا نرى أن وظيفة المؤرخ ليست صحبة الماضي وإنما استيعابه مفتاحاً لفهم الحاضر . فالعلاقة بين المؤرخ ووقائعه علاقة تبادلية ، أخذ وعطاء، بين الحاضر والماضي . لأن المؤرخ هو جزء من الحاضر ، بينما تنتمي الحقائق إلى الماضي . والمؤرخ ووقائع التاريخ ضروريان لبعضهما ، فالمؤرخ بلا وقائعه عقيم بلا جذور ، والوقائع بلا مؤرخ ، عديمة الحياة والمعنى ، فالتاريخ عملية مستمرة من التفاعل بين المؤرخ ووقائعه في حوار سرمدي بين الحاضر والماضي تطلعاً إلى المستقبل الذي سينضم إليهما .

وثمة سؤال ، ما فائدة التاريخ ؟ وهدفه بعث الماضي بأقصى ما يمكن من واقع ، وتحديد محركات تلك الوقائع ؟ إن علماً هذه غايته ومباحثه، لهو أهم ما يمكن أن يستفيد منه الإنسان ، على أن يكون معروفاً أن الفائدة ليست معلقة باستنطاق الماضي عن معضلات الحاضر ، سعياً وراء إيجاد الحلول ، كما تُستشار المعاجم لحل طلاسم الألفاظ ! إن تلك الفائدة تتعلق بتدريب ملكات العقل وشحنها ، لمعالجة ما يماثل مبحثه من شؤون ومن ثم ، يمكن أن يكون التاريخ عدة أساسية لرجل الدولة والقائد والسياسي ، يتخذ منه مرشداً وهادياً إلى سلوك أقوام وأمم. وفي دراسته الأدوار التي مرت بها الأمم ، من انتكاسات وانتصارات ، ما يأخذ بيدها في الحاضر. ولا نغفل العظة التي تملأ قلب الإنسان والمثال الذي يجده في حياة الأفذاذ الذين يُعنى بقراءة مآثرهم، وبهذا قد يؤدي التاريخ دوراً في تكوين أخلاق الفرد وتكيفها. إن العلاقة بين الماضي والحاضر لا ترتبط بحبل واه .. إنها تطور متواصل . فالتاريخ لدى أكتون " ليس عبأ على الذاكرة بل تنوير للروح " .

وأخيراً نرى كتابة التاريخ محفوفة بالمصاعب. فالحاضر القريب غالباً ما تطمس معالمه المنازعات والأحقاد والمنافسات، على فرض تكامل مصادره ، فكيف بالماضي البعيد الذي قلما يصل إلينا من أخباره إلا ما كان متعلقاً بسيرة خاصة ، أو حياة معينة ، أو حادثة ملفقة ، أو إبراز ملامح واهية ، أو إضفاء صفات لا وجود لها .

وشتان بين هذا والتاريخ .